بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 16 يوليو 2016

تجليات الاغتراب وأثنوغرافيا الواقع
في الخطاب الرّحلي الجزائري الحديث

سماح بن خروف
باحثة جزائرية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

إنّ الرّحلة مغامرة كشف وبحث يرتاد حقائق الوجود، وبدورها تستلزم الانفلات من ثقل العالم بكلّ مفارقاته بغية الانفراد برؤية تأملية إزاء المحيط الخارجي، وهي وسيلة ناجعة للاتصال بالموجودات اتصالاً يساعد الفرد على إثبات الوجود المباشر، وتحقيق الحرية الوجودية على أرض الواقع، ذلك أنّ التفاعل مع عناصر الطبيعة والكون عموماً يقتضي انسجاماً وتوافقاً من شأنه أن يوطّد العلاقة بين الإنسان وعالمه الخارجي، فكان للرّحلة فضلها في استكشاف المجاهيل من جهة، وفي إثبات الذّات والعيش بكل عفوية «**وفق الإطار العام للإنسان الذي يفكّر ويتأمل ذاته ويغوص داخلها**»[1] من جهة أخرى. والهدف من كل هذا هو التسامي بالنفس وتعزيز الثقة بها ومن ثمّ بالمحيط الخارجي.

كما أنّ لخصوصيات الرّحلة من اجتماعية وتاريخية وغيرها الدور البارز في توسيع معرفة الرّحالين، وتوجيه اهتماماتهم فليست ترسيمة جغرافية محصورة في إقليم دون آخر، بل تستدعي ترحالاً شاملاً تحدّده الوسائل المتوفرة، وكذلك مقتضيات العصر، فزاد هذا الأمر من انفتاحية الرّحلة وذلك لاعتمادها الطابع الحركي، والاغتراب من مكان إلى مكان، لتفنّد بهذا التنقل فكرة «**انعزال الذات انعزالاً مطلقاً ورفضها الاتصال بأي شيء خارجها**».[2] ومن أبرز الرّحالة العرب القدامى السيرافي، وسلام الترجمان والمسعودي والمقدسي والإدريسي، وبالعودة إلى عصر الانحطاط على سبيل المثال لا الحصر سنلفي ابن بطوطة (703هـ/779هـ) الذي اغترب من المغرب إلى شبه الجزيرة العربية قاصداً بيت الله الحرام، وأثناء رحلته اعتمد دون وعي أدبي منه عناصر السرد المعروفة بالإضافة إلى ابن جبير.

هذا على الصعيد العربي، أمّا الغربي فقد عرف الأروبيون بخاصة هذا اللون من الأدب في نتاجاتهم، ولم يكتفوا بالتنقل فحسب بل تجاوزوها إلى الاطلاع على تاريخ الإنسان عبر الزمان والمكان، ولعلّ أقدمهم الرّحالة اليوناني هيرودتس (القرن الخامس ق.م)، إلا أنّ الحضارة المصرية هي الأخرى سجّلت محاولات رحلية قبل الميلاد أيضاً بحوالي ألف سنة، وتلت محاولات هيرودتس رحلات بولو في أوائل القرن الرابع عشر، المتزامنة مع رحلات ابن بطوطة وجاما وكولومبس وغيرهم.

1- عمر منيب إدلبي، سرد الذات، فن السيرة الذاتية، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات، ط1، 2008م، ص 65

2- نيقولاي برديانق، العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، 1960م، ص 113

مدخل:

كان للرّحلة الجزائرية حظّها الوافر من الاستكشافات الجغرافية، والغور في أعماق التاريخ ليسجل رحّالوها تحوّلاتهم الفكرية، ومعارف غيرهم من الحضارات استناداً إلى حقائق تعتريهم أثناء تنقلاهم من قطر إلى آخر، فنبغت أسماء ارتحلت بين شُعب الجزائر ونواحيها؛ ففي العهد العثماني ظهر «ابن حمادوش، وأبو منصور العامري التلمساني، وسيدي الحسين الورثيلاني، وأحمد المقري، ومحمد بن علي الجزائري»، لتأتي المرحلة الحديثة إبّان الاستعمار، وما بعدها كمشاركات غير متخصصة كمحمد الطيب المهاجي، ومحمد البشير الإبراهيمي، ومحمد المنصوري وأبي القاسم سعد الله، أمّا عن بعض الرحالة الذين اختاروا الغرب وجهة للإجابة عن تساؤلاتهم حول الكون، والإنسان بحثاً عن الأنا تارة وعن الآخر تارة أخرى فنذكر منهم «أحمد رضا حوحو، أحمد منور، محمد الصالح رمضان، وعبد الحميد بن باديس وغيرهم».

1- الرّحلة الجزائرية الحديثة: الخصوصية والآفاق

لأنّ موضوع الدراسة محدود بزمن معلوم يكمن في العصر الحديث وحال الرّحلة الجزائرية الحديثة فيه، كان لزاماً علينا الوقوف عند نقطة انطلق منها رحّالون عارضوا سابقيهم، واعتمدوا سفراتهم رغم المشقة والمعاناة مصادر معرفية لهم، ومنهجاً يسيرون عليه في كشفهم لحقيقة الإنسان وكنه ذاته، ولعلّ أهم ما ميز الرّحلة الجزائرية الحديثة هو تأثرها بمجريات العصر من تطور مسّ الأصعدة المختلفة من اجتماعية (تحسن المستوى المعيشي) وصناعية (استحداث وسائل النقل)، وحتى استعمارية فرضت حالة هروب الشعب المضطهد من الواقع، واكتشاف الطبائع والأقوام من طرف المستعمر كنشاط تاريخي كان له اليد الفاعلة في تحفيز حاسة الاكتشاف ودراسة الأعراق.

إذا انطلقنا من التأصيل اللّغوي لمعطى «الرحلة» ألفينا الفعل رحَل رحْلاً ورحيلاً، بمعنى انتقل من مكان إلى آخر و«**رحلت له نفسي أي صبرت على أذاه، وارتحل الأمر بمعنى ركبه**»[1]، وارتحل الرّحالة بمعنى سافروا من منطقة إلى أخرى والتاء هنا للمبالغة والدلالة على كثرة السفر والتنقل.

أمّا أدب الرّحلة «**Littérature de voyages**» أو الأدب الجغرافي أو السياحي كما يسميه بعض النقاد[2] فهو «**مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق**»[3] باستخدام أسلوب جغرافي يعتمد التواتر والإحصاء

1- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط40، 2003م، ص 253

2- كان لكراتشوفسكي تسمية مغايرة لأدب الرحلة فقد آثر أن يسميه بالأدب الجغرافي، أمّا على الصعيد العربي والجزائري بخاصة فقد أسماه بالأدب السياحي تبعاً لقوله تعالى "فسيحوا في الأرض أربعة أشهر"، التوبة الآية 02، بمعنى ارتحلوا.

3- يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م، ص 277

للتخليد والترسيخ، وأدبي فنّي يسير وفق نظام السرد المتعارف عليه من شخصية وزمان ومكان وحدث، وحتى اللغة إذ عدت مشكلاً سردياً يعتمده الأديب الجزائري في قصّ المشاهد وتجسيمها لأنّه يتخذ منها «**موضوعاً للإدراك وللتفكير أو ربط العلاقة**»[4] بالمحيط الخارجي الذي لن يُعقل إلا بفضل اللّغة.

فلم يكتف الرّحالة الجزائري بالتجوال فقط بل تجاوزه إلى إكساب هذا النوع من الأدب قيماً ذات أبعاد، وآفاقاً عجائبية بتتبعه لغرائب الموجودات ناهيك عن القيمة الترفيهية والتثقيفية.

كما قد يكون الهدف منها هو المقارنة بين الثقافات أو السّعي إلى تقديم صورة واضحة عن الآخر على الصعيد الخلقي، كما فعل محمد السعيد باعلي الشريف عندما سافر إلى فرنسا، فيقول عن أهل باريس: «**ولهم محبة في تبديل وتغيير سائر الأمور، لا سيما اللباس فإنه غير مقرر عندهم، وليس ذلك التغيير كليّاً**»[5] أو على الصعيد الأيديولوجي عند التأثر بفكر الغير أو سلوكياتهم بعد زيارة بلدانهم وحضاراتهم، فهذا أحمد رضا حوحو يردف قائلاً عن الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي «**فما عليك إلا أن تفهم القاعدة البسيطة التي بنيت عليها الاشتراكية، وسارت على ضوئها وهي: لا يجوز استغلال الإنسان لأخيه الإنسان**»[6]، ولذلك فقد حملت الرّحلة الجزائرية في طياتها خصوصية اجتماعية وثقافية وفكرية ساعدت الأديب الجزائري على مجاراة الواقع بكل تمفصلاته، ووسّعت من دائرة الأفق الضيقة لديه إلى نبذ فكرة الانغلاق أو التقوقع على الذات إلى رؤية هذه الأخيرة بعين أخرى كان للرحلة الفضل الكبير في ألا يبرح الفرد/الأديب الجزائري مكانه، بل لا بدّ من ملاحقة العالم الخارجي، والتأريخ له بموضوعية يقتضيها المرجع من جهة، وبخيال جامح يرسمه المتخيل في إطار سردي، يحفّز في القارئ عنصر المتعة والتشويق والتفاعل مع الأحداث.

كما أنّ المعارضة والمحاكاة حاضرة في نصوص الرّحالة الجزائريين فقد قاموا بتجاوز الخبرات الرّحلية-المشرقية بخاصة- السابقة، لا نبذاً أو تبرّماً، وإنّما مواكبة ومراعاة لمقتضيات العصر الذي تغير، إلا أنّ الأديب الجزائري قد عايش الأحداث ودوّن الأخبار «**على منوال ما دوّنه السابقون من الرّحالين والأعلام البارزين في هذا الفنّ أمثال المسعودي والمقدسي، وابن جبير، وابن بطوطة وغيرهم من الرّحالين**»[7]، فسعى بدوره إلى إحياء التراث، والمحافظة على الوجه العام له لكن التجديد قد مسّ نظام السرد ومكوناته وبخاصة مكوّن اللغة، باعتباره أهم مشكّل يعبّر وبمختلف مفارقاته عن ثقافات الشعوب، والأمم المختلفة لأنها مثوى الوجود على حدّ تعبير «مارتن هيدغر» والسبيل الوحيد للمرء في اكتشاف العالم الذي لا رابط له به إلا بها، وتُعدّ نمطاً من التذّهن الذي يطبع في الذات منذ أول اتصال للمرء بها، وعليه فقد تعدّى دوره «**اختزال وتصنيف ما نبصره أو نسمعه، ووصف تجاربنا وخبراتنا المادّية والمعنوية إلى تشكيل**

4- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1987م، ص 45

5- مقطع مأخوذ من إرسال للأستاذ عمران قدور، الأشكال النثرية التقليدية في الأدب الجزائري الحديث، ص 9

6- المرجع نفسه، ص 10

7- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط 2009، ص 36

تفكيرنا أو الطريقة التي ننظر بها إلى ما حولنا»[8]، فالرّحالة القدامى عبّروا بلغة بسيطة، وبمعجم معقول دلالياً ليسر الحياة وابتعادها عن التعقيد، في حين عرفت الرّحلات الجزائرية الحديثة حداثة على مستوى اللغة، فكان للمحكي النفسي حضوره البارز فنلفي المونولوج مستتبعاً لتأمّلات الأديب، ولأهم عنصر قام عليه مسروده ألا وهو الوصف، فهو المركز الذي يجعل خطابه الرّحلي فنّاً متميزاً ومن قراءته فنّاً عميقاً، وبوهجه يُجذب القارئ، ويقام عمود العمل بالتقاء العناصر الثلاثة السابقة الذكر (اللغة، الوصف، القارئ).

ولا شك أنّ المبدع يعمل دائماً على تجسيد رؤيته للواقع، ويعمل جاهداً ـ في الوقت نفسه ـ على تجاوز الأطر المألوفة حتى لا ينزل بخطابه إلى مستوى التعامل الحياتي للغة، وهنا تأتي الحاجة إلى اقتناص كلّ مظاهر الثراء في اللغة، واصطياد ما تحمله من تنوع لتحقيق الهدف الجمالي»[9] وصناعة القول الجميل، البليغ، المؤثّر لتشكيل عوالمه التخيلية، وخلق الآثار الدلالية والبلاغية المنشودة.

والأفق الهامّ الذي ينشده الرّحالة الجزائري هو حب الاستطلاع، وإدراك الطّبائع والمعرفة «**كاعتقاد صادق حيث يملك المعتقد الحق في أن يكون على يقين**»[10]، فتتنوع بذلك معارفه وتتسع طموحاته في فهم الظواهر الكونية، واستظهار عالم الإنسان على أمل قطع أشواط بعيدة مهما تطلبت من عدة وعتاد من الرحالة، فهو دوماً يسعى بتطلعاته اللامنتهية نحو حضارة وتفكير قوامه الفكر الموضوعي الذي «**يؤلف بين الموجودات، فيربط بين المدرك حسّاً والمتصور عقلاً والإنسان في وجوده يعيش بين لغته وفكره**»[11] اللغة بما هي روح وثقافة ووجدان. والغاية من كلّ هذا هو إثراء الزاد المعرفي والثقافي لدى المطّلع على هذه الرحلات، ليقدم له الممارسات اليومية لفرد آخر عربياً كان أم أجنبياً في إطار مناخ اجتماعي معيّن.

وقد يكون الباعث دينياً فلا يفوّت الرّحالة الجزائري ـ صاحب الرّحلة الحجازية- أيّ دقيقة من الدقائق التي عاشها في البقاع المقدّسة مثلاً ليقوم الدين باعتباره «**وضعاً إلهياً سائقاً لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصلاح في الحال والفلاح، في المآل**»[12] فجاءت الرّحلة الجزائرية لتقوّي إيمان الكثيرين وتسيل اللعاب نحو دين أفضل كأنجع غذاء روحي كان الفرد الجزائري بأمس الحاجة إليه بخاصة إبّان الاحتلال الفرنسي الذي طمس كل مقوّمات الحياة فيه، وقد ذهب عمر بن قينة في مؤلّفه **رحلات ورحّالون** إلى أنّ هناك رؤى مختلفة تهدف الرّحلة إلى عرضها تبعاً للأيديولوجيات المتباينة لأصحابها، ووفقاً للمذاهب المتبنّاة من طرفهم، ولعل الرؤية الإصلاحية قريبة بدورها من الخطابات الرّحلية، وإن لم نقل ممرّرة عبرها نحو القارئ المتشوق

8- كريم زكي حسام الدين، الزمان الدلالي، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر، ط2، 2002، ص 117

9- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية (قراءة أخرى).الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1997، ص 17

10- صلاح إسماعيل، نظرية المعرفة المعاصرة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص 40

11- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط1، 1998م، ص 68

12- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، تر: عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج1، ص 814

دائماً إلى النّهوض بحضارة بلاده، وهذا لن يتم إلا باطّلاعه على باقي الحضارات وطرق عيشها حتى يوازن ومن ثم يثابر للتغيير لا للتكريس.

و»الشيخ باعزيز» مثال حيّ للرحلة الحجازية يصف فرحته بخطّ قدميه الأراضي الطاهرة ليشوق القارئ ويزيد من تقديسه لهذه البقاع، يقول: «**ما أشدّ فرحتنا ونحن نضع أقدامنا في منازل الوحي، في وقت أخذت الشمس ترسل أشعتها عليه، فتزيدها بهاء ونوراً، فحمدنا السرى وعمّنا الابتهاج لرؤية هضاب المدينة وروابيها، وكانت فرحة الجميع عظيمة يعجز القلم عن وصفها**».[13] فهذا الأديب قصد المساس بالمعرفة الروحية لأنها أرقى أشكال النشاط الإنساني، الذي يطعّم من إيمان الإنسان، ويشبع من عاطفته الدينية ومن ثمة يحقق وجوده ويعترف بالعالم المحيط به دائماً، وهذا هو هدف أدب الرّحلة.

2- أدب الرّحلة والاغتراب الأدبي؛ التّعالق والاختلاف:

قبل البدء بالموازنة بين الظاهرتين من النّاحية الأدبية حبذا التطرق إلى المقصود اللّغوي منهما والبحث عن سمات التشابه والاختلاف، ومن ثمة إبراز التداخل الحاصل بينهما كضرورة منهجية فرضها المعطى العام للمداخلة، وذلك بالعودة إلى جملة من المعاجم والقواميس اللغوية العربية منها والمترجمة، حتى نتعامل مع اللفظة كما وردت فيها بغية الوقوف على دلالاتها بحسب المؤسسين من جهة، ومن ثم تتبع التغير الدلالي المحتوم من جهة أخرى.

فالاغتراب افتعال من الغربة، وقد ذكر في المعاجم العربية بمعنى النزوح عن الوطن، فغرب فلان يغرب غرْباً بمعنى تنحّى، «ويقال غرّب في الأرض إذا أمعن فيها، والغرب هو المغرب والذهاب وكذا التنحي، **وأول الشيء وحدّه**»[14] وأغرب القوم أي انتووا، والغرباء هم الأباعد والاغتراب: الابتعاد عن الوطن، **واغترب الرجل: نكح في الغرائب**»[15] ومن هذه التعريفات نخلص إلى أنّ الاغتراب هو السفر أو الهجرة إلى بلد قريب أو بعيد وهو ما يوافق المصطلح الغربي «émigration» في اللغة الإنجليزية مثلاً. والغربة في معناها الجغرافي تتطلب رحلة وسفراً.

فللمصطلحين الدّلالة اللّغوية نفسها في حين يتمايزان من الناحية الاصطلاحية؛ لأنّ مفهوم الاغتراب لم يبق على حاله بل تغير من مفهومه الجغرافي الضيق إلى المفهوم النفسي، وإلى آخر اقتصادي يعنى به التشيؤ بحسب كارل ماركس أي «**قابلية الأشياء بل والكائنات الإنسانية المملوكة للتنازل عنها أو البيع**»[16]،

13- عمر بن قينة، رحلات ورحّالون، في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2009، ص 73

14- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، دط، 1980م مادة (غرب)، ج4، ص 410

15- ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع، تونس، ج1، 2005، مادة (غرب) ص639

16- سهير عبد السلام، مفهوم الاغتراب عند هربرت ماركيوز، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 2003م، ص 21

كما دلّ على انفصال الإنسان عن ذاته وعن المجتمع لقهر الظروف التي تفقدها الشعور بالانتماء، فيغيّب الانسجام مع أنساق المجتمع، ونواميسه وينعدم تحقيق التوافق مع البنية الاجتماعية الكبرى:

تحقيق الطبيعة الجوهرية للإنسان = إنسان (ذات) متوافق مع البنية الاجتماعية

والتساؤل المطروح: لماذا الاغتراب دون غيره من المصطلحات في تعالقه مع الرّحلة؟ ومن ثمّة أدب الرحلة؟ والإجابة تكمن في أنّ المصطلح الأول (الاغتراب) يطابق الثاني في تحديد الباعث نحو الهجرة والترحال؛ لأنّ بعض الأدباء الجزائريين لم يشعروا بالرّضا تجاه الوضع السائد آنذاك، فكانت الرحلة وسيلة الرّحالة للتنفيس عن شجونه أو البحث عن البديل أو انبهاراً بحضارات أخرى فيصبح الرحيل طوعياً «**يختاره لأسباب عدة كعدم انسجامه مع المجتمع، وعدم الرّضا بالعادات والأعراف والمخالفة في الفكر والمعتقد**».[17] هذا في غالب الأحيان لكن الدّافع الأكبر هو الاكتشاف، لأنّ الاغتراب لا يكون سلبياً دائماً، بل يغترب بعض البشر لتحقيق غايات نبيلة تخدم ذاتهم ومحيطهم الخارجي، ففي الرّحلة يسافر الأديب الجزائري لكي يتأمل الموجودات و«**يتمكن كذات حرة سلب العالم الخارجي من غربته، وكي يتمتع في شكل الأشياء ونسقها بحقيقة خارجة عن نفسه**»[18]، ومن ثمّة يسعى إلى أن يضفي لمسة خاصة على الواقع الذي بات جافاً أو تكاد تذروه رياح الرّتابة، واللاتجديد زمن يوتوبي غريب، تحتاج الأماكن فيه إلى من يدغدغها، وينفّس عن جمادها المفعم بالسّحر والغرابة.

هي غايات إذن تدعو إليها الرّحلة الجزائرية الحديثة أصحابها ومغتربيها، لذا فقد كان لزاماً على الأديب أن يضاهي بين أدب الرحلة والرواية من حيث التعبير عن معطيات الواقع، «**فتتصارع فيه تقاليد صارمة وأشكال متحدثة، وحياة داخلية تتميز بالصدق والحرارة، وتسعى إلى التعبير عن الواقع وبلورة رؤية مستقبلية**»[19]، وهذا الاستشراف لا يتمّ إلا بلحظات اغترابية يعتريها تأمّل واسع ومعمّق في مظاهر الكون المختلفة حتى يتم التصوير والانطلاق من مرجع يمثل الواقع المعيش والمتجسد، فهو المعطى الذي يستلهمها الرحالة، ليرسم من خلالها الآفاق والأبعاد، فيشكّل متخيله في خطاباته الرّحلية كموضوع جمالي محقق لهذا الواقع عبر فضائه السردي، فيخلص إلى تخطيب الزّمان والمكان.

وهكذا يمكن للأديب المغترب أن يتصل بالمكان اتصالاً كليّاً، حيث يتماهى مباشرة في الزمن بأبعاده الثلاثة ويختار الأمكنة التي يجد فيها تأثيراً معيناً، وألفة لا شعورية تطمئنه حاضراً ومستقبلاً، وبهذا تمكنه الرّحلة من التفكير والتنقل بحرية كي يتذكر ويستشرف فيعتبره -المكان- كما يراه «غاستون باشلار» «**مكاناً**

17- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، مجدولاي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص 17

18- مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال والاغتراب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1997م، ص 84

19- محمد فائق، دراسات في الرواية العربية، دار الشبيبة للنشر والتوزيع، د ط، 1978م، ص 92

يمارس فيه الإنسان أحلام اليقظة والتخيّل»[20]، فيعايش الوقائع كما هي عليه، ويسعى إلى جعل هذا المكان وخطاباته الرّحلية بشكل عام متحكماً قاعدياً وصارماً في الوصول إلى إبراز خارطة المرجع، وكذا المتخيل باعتباره موضوعاً جمالياً مجسداً لهذا الواقع عبر فضائه.

ومن هنا تأتي اللّمسة التأملية والفلسفية التي يحتاجها الرحالة وبفضل حالة الاغتراب بمفهومها الهيغلي[21] والفلسفي الحديث فيتسامى بذاته، مثلما نلفي نظيره في الاغتراب الأدبي، أوقد يستعين بالاستلاب الروحي حتى يجعل من نصوصه عملاً معرفياً راقياً قد يخرج عن نطاق الواقع إلى أطر غريبة تكمن غرابتها في التوسّل ببعض المفاهيم التي اقتضتها المأساة الإنسانية، فيرغم على مغادرة لعبة الحياة القاسية، نظراً لأنّ تركيبته قد فرضت عليه نوعاً من المجابهة، ذلك أنّ مقياس المبدأ يتنافى وواقعه المرّ فيقارن بين واقع الدّولة التي زارها ونواميس بلده أو وضعها، كما فعل «**حسان الجيلاني**» في مدوّنته عائد من الصحراء الغربية «**فالميزة العامة للشعوب العربية الصحراوية أنّها أصيلة في ثقافتها، معتمدة على نفسها في معيشتها، وذكية إلى حدّ العبقرية في اختراع الوسائل التي من شأنها التغلب على الطبيعة وعلى جميع الصعوبات، لقد وجدنا أنهم لا يعانون من أزمة مياه كما نحن نعاني، ولا يعانون من أزمة غذاء كما تعاني دولتنا العظمى**»[22]، فرفضه لما سائد في بلاده الجزائر واضح، ودليل على اغترابه الاجتماعي في مناهضة سير الأنساق وبمختلف مستوياتها.

أمّا عن النّسق الديني كذلك فتستثار غيرة «**الشيخ باعزيز**» على سلامة دينه وانتظام أهم ملمح دالّ عليه ألا وهو المسجد، يتحدث لائماً هؤلاء الذي اغتربوا عن دينهم، وانسلخوا عن تعاليمه السديدة، ويردف في إحدى نصوصه قائلاً: «**يتراءى لك في جوانب المسجد من المناظر المزرية بحرمته ما يجعل نفس المؤمن الصحيح الإيمان تنقبض خجلاً ممّا يأتيه بعض المسلمين داخل مسجد نبيهم، فهذا راقد وهذا يأكل ويشرب وذلك يهرّج أمام جمع من أصحابه**»[23]، فكانت الرّحلة الجزائرية الحديثة مجالاً خصباً للاحتكاك بالمحيط الخارجي، وتجاوزه إلى استجماع رؤية ثاقبة تجسّد اغتراب الكاتب تارة، وانسلاخ المحيطين من حوله تارة أخرى.

فكان إذن الفضل للاغتراب بارزاً في إكساب الخطاب الرّحلي السّمة الوجودية التأملية التي تحتاج بدورها إلى محطّات اغترابية، وطابع نقدي يقتضي بعض الرؤى الاصلاحية في ثنايا الرّحلة، أو عجائبي يقفز بالمخيلة إلى آفاق بعيدة، قد تستذكر أو تستشرف القادم عن طريق التأثير المتبادل بين الكاتب والمكان الذي يحمل في طياته دلالة تاريخية معينة تدغدغ قوميته أو التزامه فيسرد في بيت الغربة مجريات رحلته

20- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 58

21- يعدّ هيغل أبا الاغتراب والسيّاق إلى استخدامه في إطار منهجي مستقل بإجراءاته العلمية ومقاييسه المستندة إلى حقائق فكرية وأخرى فلسفية، فيرى بأنه حقيقة أنطولوجية مرتبطة بالوجود تستمد جذورها من وجود الإنسان في عالم أصبحت فيه كل الأشياء بلا معنى.

22- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء الغربية، صادر عن وزارة الثقافة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 38

23- عمر بن قينة، رحلات ورحّالون، مرجع سابق، ص 87

في فضاء فسيح، وكفيل بأن يجسّد متخيله، فـ «الشيخ باعزيز» يستذكر مغترباً ومرتحلاً بعد مروره بمدينة القدس «**إن فلسطين في خلق جديد لينقذها من مخالب المغتصبين...غادرنا القدس ونحن نحمل من آلامها وآمالها شيئاً كثيراً إلى عمّان عاصمة الأردن**»[24]، هي تمظهرات اغترابية تحكي آلاماً تاريخية كانت ومازالت تعيش في نفس الرّحالة، وتكفيه الرّحلة متنفساً يتناسى ويبتهج به من غصّة التاريخ الموجع.

كما يحنّ الجيلاني في لحظة من اللّحظات إلى الجزائر بعد مروره بمساحة واسعة غمرتها الفرق الموسيقية والمسرحية، فيستذكر قائلاً: «**ومرّت بذاكرتي صور حيّة من تاريخ بلادي عندما أعلنت الجزائر وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962 وكنت طفلاً يافعاً، وغمرت تلك الفرحة كافة الشعب الجزائري**»[25]، فحالة الاغتراب بادية والشوق إلى الزّمن الجميل واضح كان للرّحلة اليد الفاعلة في الشعور به وتأكيد وطنية الكاتب وبصدق جليّ.

3- الأثنوغرافيا والخطاب الرحلي؛ أوجه التمايز وأبعاد الحضور

3-1- بين الأثنوغرافيا وأدب الرّحلة؛ مفارقة اصطلاحية:

قبل الحديث عن حضور البعد العلمي في أدب الرحلة الجزائري، أي مدى تمظهر السّمات الأثنوغرافية فيه، حبّذا التعريف بهذا العلم، وإبراز مرتكزاته التي ساعدت على تعالقه والخطاب الرّحلي؛ لأنّ كل ما يصادف الرّحالة الجزائري أثناء القيام بأسفاره المتنوعة من معالم تاريخية وثقافات متمايزة، وتقاليد يسعى الأثنوغرافي بدوره إلى معالجتها والتحقيق فيها وفي عراقتها، وعرض المعطيات العمرانية، فيتقاطعان في وصف الطبيعة والمياه والآبار مثلاً أو الآثار التي تحيل هي الأخرى على حضارة البلد الموصوف لنستشف البعد الحضاري في كليهما.

والأثنوغرافيا علم يهتم بوصف الموجودات «**والمحسوس لواقع الحياة اليومية لمجتمع ما خلال فترة زمنية معينة، متضمناً ذلك مجموع القيم والتقاليد والعادات والآداب والفنون، وكل ما يندرج تحت ذلك الكل المركّب الذي اصطلح على الإشارة إليه بكلمة ثقافة**».[26] فاكتشاف عالم الإنسان والبعض من الأماكن المغمورة كالمحيط الأطلنطي الذي لم يكن معروفاً مثلاً، والقارة الأمريكية نفسها كانت غائبة عن المعجم الجغرافي، لكن وبفضل رحلات الأثنوغرافيين تمّ إظهارها إلى النور والتعريف بها وبسماتها التي سجلتها في تاريخ الشعوب وحضاراتهم.

24- عمر بن قينة، رحلات ورحّالون، مرجع سابق، ص 73

25- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء، مرجع سابق، ص 29

26- حسين محمّد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، ع 138، الكويت، د.ط، ص 149

والأديب الرّحالة أثنوغرافي في ظاهره فهو يتفقد البلدان والأماكن، ويصف بتصوير معمّق المشاهد المؤثرة فيه، وعادات الدّول التي خطّت قدماه أرضها، ولكن بأسلوب تعبيري يرتكز الفنية متكأ في نقل المحسوس والموجود، لكنه يفتقر إلى التسلح العلّمي والصرامة في الملاحظة أو الغاية في التأسيس لنظريات معرفية حول الجنس البشري وجلّ طبائعه، فالأثنوغرافي يعتمد مبادئ الجيولوجيا والجينالوجيا والأنثروبولوجيا...، كلّها علوم مسخّرة له لصبغ دراسته الموضوعية صبغة علمية ساعدت الوسائل التكنولوجية على الغوص فيها وبإتقان، في حين لا يجيد التلاعب بالألفاظ والأساليب أو الانزياح بالتعابير حتى يبرع ويبدع في التصوير مثلما يفعل الرّحالة.

3-2- نماذج أثنوغرافية في الرّحلة الجزائرية الحديثة

كان للملامح الأثنوغرافية مكان في «عائد من الصّحراء الغربية» لحسان الجيلاني، فقد قدّم لنا جانباً اجتماعياً محيلاً على طبائعهم، فـ «**الشعب الصحراوي لا يعرف معنى عدم الاختلاط، فالمرأة إلى جانب الرجل، والشاب إلى جانب الشابة، والكلّ يعيش في أمن وأمان واطمئنان، ويسهر الجميع إلى بعد منتصف الليل دون أن يعتدي أحد على واحدة، ودون أن ترى مظهراً من مظاهر العنف...**».[27] فهو يصرّح في سهرة ليلية قضاها في إحدى الخيمات بأنّ فكرة الاختلاط أمر عادي، حتى وإن تجاوزت السهرة منتصف الليل فلا وقت ولا قانون يفرض سلوكيات الحياة على الأفراد، فعرض لنا ثقافة مضادة ونقيضة لثقافة الجزائر في نظره، كأسلوب عام محدّد لمظهر اجتماعي (أخلاق) معين وسائد.

وفي منحى آخر ينسج «الشيخ باعزيز» على منوال ابن جبير في مدحه لأهل مكّة ووصفه لخيراتها ومعالمها، وبدوره يتغنّى بأخلاق أهلها وبعطر جوها ونسيمها، فأردف قائلاً: «**ضيقها كعاصمة لم يمنع أهلها من اتساع أخلاقهم وكثرة حفاوتهم بضيوفهم**»، ويضيف مشيداً: «**وما أحلى ليالي المدينة وأصفى جوّها وأعذب هواءها**».[28] فقد تطرّق كلاهما إلى الجوانب المادية والمعنوية لشعوب البلدان المستضيفة لهما، لأنّ الرّحالة الجزائري يسافر ليتفاعل مع معطيات المجتمع الآخر، فيعجب ويتفاجأ تارة أو ينبهر ويتحسّر تارة أخرى، بخاصة إذا تعلق الأمر بالآداب التي من شأنها أن تسير على وتيرة واحدة بين الشعوب.

أمّا عن العادات والتقاليد فيتحدث الجيلاني عن مراسيم الزواج التقليدي لدى الصحراويين شاهده من خلال استعراض أسسته فرق شابة مفعمة بالحيوية والنشاط، فالزواج لدى هؤلاء بسيط أصيل في ظاهره لا يغلّب الماديات، ولا يحتاج إلى بروتوكولات مكلّفة أيضاً، بل يعتمد الاستعراض الذي يقدّم الطابع الفولكلوري لهذا الشعب، وفي هذا المقطع يسرد الخطوات التي يسير عليها الصحراويون في احتفالهم بزواج العروسين: «**وتمّ عرض زواج تقليدي تحمل العروس بالهودج ويتم أخذها إلى بيت العريس عن طريق الزغاريد التي**

27- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء، مرجع سابق، ص 28

28- عمر بن قينة، رحلات ورحّالون، مرجع سابق، ص 84

تعبّق الجوّ بروح التراث والمسرّة والمحبّة، وقد مثّلت هذا الدّور شابات سمراوات من أهل الصحراء».[29] فهو يبين جانباً مادياً من التراث الشعبي لهذه البلاد، ويتيح فرصة المقارنة لدى القارئ بحسب نظامه المعرفي والثقافي الخاص ببلاده وبغيرها من الأمم.

وبصورة مغايرة نوعاً ما يستذكر «الشيخ باعزيز» تقاليد بلاده في ديار الغربة حنيناً وشوقاً وإبرازاً للموقف الإصلاحي، لأنّه يحث على تصحيح فكرة خاطئة سادت في مجتمعه وتكمن في المغالاة المادية التي ينبغي أن تصرف حتى يلقّب الحاج فعلاً بالحاج، ويا لها من كنية بعيدة عن الأصل الجوهر السامي فيها، فبحسبه «**جرت العادة وحكّمت التقاليد أن يستقبل الحاج بحفاوة زائدة لا من ذويه وأقاربه فحسب بل من عارفيه وسكان حيّه وقريته، وفي بعض الجهات تتألف وفود من أولئك فتخفّ بالطبول والزّرنة لاستقباله...، أمّا أنا فلم أحفل بشيء من هذا كلّه، فلا طبول ولا زرنة ولا زغاريد ولا موائد عامة من نوع ما ذكر، ومع ذلك أرغمتني هذه التقاليد على حمل كمية ممّا يوزع كهدايا بهذه المناسبة على الزائرين**».[30] فعدم سيره على منوال سابقيه بحسب ما أملته العادات والتقاليد حرمت الكاتب من لقب الحاج رغم المشقة المادية التي تحمّل أوزارها في البقاع المقدسّة.

وقد قدّم الرّحالة الجزائري الحديث صورة عن الأثنوغرافي عندما عالج أهم مادة لهذا العلم وبصفة مباشرة، فقد خصّص الجيلاني عنواناً لمصطلح الثقافة في مدوّنته وعنونه بأصالة الثقافة، حيث قام بتقييم وتوصيف ثقافة الشعب الصحراوي قائلاً: «**الحقيقة التي يمكن أن تسجّل هي أنّ للشعب الصحراوي ثقافة أصيلة ظلت متماسكة وقوية في وجه كلّ التيارات الاستعمارية، فقد ظلت صامدة متحدية كلّ أوجه الاستلاب والتدمير**».[31] فلولا الاحتلال الإسباني لما تعثرت الثقافة الصحراوية ولما سارت هذا السير البطيء، إلا أنّ المجابهة وروح المقاومة مغروسة في نفوس الشعب مهما كانت الظروف.

نتائج عامّـــة

ممّا سبق نخلص إلى أنّ الرّحلة قديمة قدم الإنسان، ولمّا كان لهذا الأخير حظّ في الإبداع استطاع أن يعلو بها إلى أطر فنية سمت بها، وجعلت التاريخ مستمراً من خلالها، فتناقلتها الأجيال لأهميتها، ولخصوصيتها المعرفية اللافتة لفضول القارئ المتأمل في الوجود والباحث عن الحقيقة دائماً وأبداً، والحال نفسه لدى الفرد الجزائري، فقد وجد في هذا النوع من الأدب ضالته في وصف المسالك والإحاطة بخصائص الشعوب وطبائعها، كما قدّم أدب الرحلة الجزائري الكثير من الفضائل للأدب وللقارئ على حدّ سواء:

29- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء الغربية، مرجع سابق، ص 35
30- عمر بن قينة، رحلات ورحالون، مرجع السابق، ص 88
31- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء، مرجع سابق، ص 41

1- نقل المعارف والأفكار والحقائق المتعلقة بالموجودات تأصيلاً وتحليلاً، لتصير الخدمة علمية قبل أن تكون نتاجاً أدبياً، ولتبحث في أسرار الكون وتنظّر لمشاهده الحية وخباياه، والأديب هنا ينتمي إلى فئة المثقفين، و»**لطالما امتزج دور المثقف بدوره كمواطن، فمعنى ذلك أنّ له روابط متينة بين وظيفته وبين المجتمع الذي يحتاج إليه بسبب ما يتمتع به من عمق في التفكير**»[32] وقدرة على التأمل والتنظير.

2- أسهم في توصيف البلدان والمدن وتقديم إحصاءات جغرافية من شأنها أن تثري بنية القارئ الفكرية والثقافية، باعتباره مرتعاً لتبادل الثقافات، ومجالاً خصباً يحقق التفاهم الفكري لعلاقة التأثر والتأثير الطبيعية بين الرّحالة وبين الشعوب الأخرى.

3- التعريف بالثقافات المتنوعة والمتباينة ما أكسبها الطابع الأثنوغرافي ذا البعد العلمي، والطامح إلى اكتشاف عالم الإنسان والغوص فيه، فتنوعت مادة الرحلات الجزائرية الحديثة بحسب المواضع والأقاليم، ممّا أدى إلى التداخل الثقافي وهي أهم قضية تناولها الدرس الأثنوغرافي بالتحليل والدراسة.

4- البحث عن الذات والسعي نحو تحقيق الكينونة بمفهومها الفلسفي؛ لأنّ مجرد الوجود ليس كافياً، بل ينبغي تجاوزه إلى تحقيقه وتفعيله على أرض الواقع.

5- المعالجة الروحية وتقوية الوازع الديني نظراً لتعالقه مع ظاهرة الاغتراب في اعتزال الحياة والاتصال بمظاهر الكون كنوع من التسامي، لذا طغى البعد النفسي على أدب الرحلة الجزائري الحديث في حنين الرّحالة واستحضارهم لذكريات الزمن الجميل في بلادهم، نظراً للغربة التي عاشوها رغم كرم البلد المستضيف وحسن ضيافته.

6- تقديم خصوصية البنى الاجتماعية الكبرى والصغرى من أفراد ومؤسسات تفضي إلى تزويد القارئ بحقائق حول طبيعة الأعراف السائدة والتقاليد المتنوعة فيها.

7- المفاضلة والمقارنة بعد استحضار ثقافة الآخر وسماته الأثنوغرافية، ومن ثمّة البحث فيها وفي خصائصها، مثلما فعل ابن باديس والإبراهيمي في ولوعهم بعادات الغرب وآدابهم، وحثهم على التغالب المحمود الذي يشجع على الانفتاح ومواكبة المقتضيات، وتقريب الرؤى وتعميقها.

8- كان للرحلة الجزائرية دورها في ربط القارئ بالوقائع المختلفة، فعدّت بمثابة سجل تاريخي للأحداث والتأصيل للمغمور منها إبّان الاستعمار على وجه التحديد.

32- محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، الجزائر، د.ط، ص 45

9- تحقيق المتعة الفنية والتشويق في الحكي ممّا يستدعي التنقيب والتحليل، ولأنّ هذا الأدب لم يبقَ محدوداً وجافاً، احتاج إلى جماليات التصوير الدقيق الذي من شأنه أن ينمّي من ذوق القارئ الفنّي والخيال الجامح عبر تقنيات السرد والوصف.

10- وما خالف أدب الرحلة الأثنوغرافيا فيه هو تناوله للموضوعات عينها ولكن بأسلوب فني يعتمد بلاغة التعبير ورونق الكلام وسحر البيان وكلفة البديع، وبرهافة حسّ يتأمل الموجودات وبعاطفة شجية يهرب من الواقع حتى يحاكي المعطيات.

وأدب الرحلة الجزائري كفيل بأن يتضمن التجريب في بعض حالاته، خاصة إذا تعلق الأمر بفكرة تداخل الأجناس، وأنّ الرحالة المغترب يحتاج إلى خواطر تعزيه في سفره الطويل وأشعار تؤنسه، وقصائد نثرية توائم دفقاته الشعورية الحسّاسة.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع، تونس، ج1، 2005، مادة (غرب).
- حسان الجيلاني، عائد من الصحراء الغربية، صادر عن وزارة الثقافة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007
- حسين محمّد فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، ع 138، الكويت، د.ط، ص 149
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، مطابع الرسالة، الكويت، د ط، 1980م، مادة (غرب)، ج4
- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2009
- سهير عبد السلام، مفهوم الاغتراب عند هربرت ماركيوز، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 2003م.
- صلاح إسماعيل، نظرية المعرفة المعاصرة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007م.
- عمر بن قينة، رحلات ورحّالون، في النثر العربي الجزائري الحديث، دار الأمّة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الجزائر، ط2، 2009
- عمر منيب إدلبي، سرد الذات، فن السيرة الذاتية، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات، ط1، 2008م.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1984
- كريم زكي حسام الدين، الزمان الدلالي، دار غريب للنشر، القاهرة، مصر، ط2، 2002
- مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال والاغتراب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1997م.
- محمد فائق، دراسات في الرواية العربية، دار الشبيبة للنشر والتوزيع، د ط، 1978م.
- محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، الجزائر، د.ط.
- محمد عبد المطلب، البلاغة العربية)قراءة أخرى(. الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1997
- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، تر: عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج1
- المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط40، 2003م.
- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط1، 1998م.
- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 1987م.
- نيقولاي برديانق، العزلة والمجتمع، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، 1960م.
- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، مجدولاي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008
- يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2009م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016